منال وحسين
(3)

فِي حَدِيقَةِ الأُورمَان

الكاتبة الراحلة



أماني العشماوي
(رحمها الله)

2012-9

منال وحسين (3)

في حديقة الأورمان

أماني العشماوي

أنا منالُ، وأخي حُسَينٌ يصغُرني بسنَتَين، لذلك، أنا أعتني به وأرعاه طولَ الْوقتِ، فأنا الأختُ الكُبْرى، وإن كان هو في غايةِ الذَّكاءِ، فكثيرًا ما يقترِحُ عليَّ أنواعًا مِنَ الألعابِ تَنْتَهي بأخطاءٍ خَطيرَةٍ.. كنتُ أَعترِفُ بها سريعًا لأبي وأمي، لكنّ أخي حسينًا يُفَكِّرُ دائمًا في فِكرَةٍ تُجَنِّبُنا الْعُقوبَةَ، بنفسِ السُّهولَةِ التي يَقْتَرِحُ بها الألعابَ الْخَطِرَةَ.

اعْتَدْنا في عُطْلَةِ الصَّيْفِ أنْ نَقْضي بعضَ الأَيّامِ في قَرْيَةِ جَدّي وجَدَّتي أهل أبي، فنَجْتَمِعُ مع أبْناءِ أَعْمامِنا وعَمّاتِنا، ونَقْضي أَيّامًا مَليئَةً بالنَّشاطِ والْعَمَلِ في الزِّراعَةِ والْحَصادِ، ونُشارِكُ أهلَ الْقَرْيَةِ في مُناسَباتِهِمُ السَّعيدَةِ والْحَزينَةِ.

ونُمْضي أَيّامًا أُخْرَى مع جَدّي وجَدَّتي لأُمّي، وهُناكَ نَجْتَمِعُ مع أَبْناءِ أَخْوالِنا وخالاتِنا.

فِي إِحْدَى الْعُطلاتِ، ذَهَبْتُ أنا وأَخي حُسَينٌ لِنُمْضي أُسْبوعًا مع جَدّي وجَدَّتي لأمي في بَيْتِهِما في الدُّقي، والْتَقَيْنا هناكَ ابْنَيّ خالي عبد الرحيمِ وبناتِ خالَتي أُمَيْمَةَ.. وكُنّا نُمْضي الْيَوْمَ في اللَّعِبِ في الْحَديقَةِ، ويَلْعَبُ معنا أَوْلادُ وبناتُ الْجيرانِ. وفي الظَّهيرَةِ، نَجْلِسُ مع جَدّي لِيَقْرَأَ لنا شِعْرًا أو يَسْتَمِعَ إِلَيْنا ونحنُ نَقْرَأُ في مَجْموعَةِ كُتُبِ أَحْمَدَ نَجيبٍ، يَبْدَأُ بأَصْغَرِنا ويَنْتَهي بأَكْبَرِنا وهُما أنا وابنُ خالي.. وفي الْمَساءِ نُشاهِدُ بَرْنامَجًا واحِدًا في التِّلْفازِ، وهذا النِّظامُ مَعْمولٌ به طولَ الْعامِ في بَيْتِ جَدّي وجَدَّتي، ثُمَّ نَقْضي بعضَ الْوَقْتِ في الْبَيْتِ، نَلْعَبُ أو نَتَبادَلُ الْحِكاياتِ والطُّرَفِ والذِّكْرياتِ.. والْمَعْلوماتِ.

ذاتَ لَيْلَةٍ، عِنْدَما حانَ وَقْتُ الْجُلوسِ في الْبَيْتِ، دَخَلْنا غُرْفَتَنا وأَقْفَلْنا الْبابَ وأَطْفَأْنا الأَنْوارَ وأَسْدَلْنا السَّتائِرَ.. ثُمَّ أَخَذْنا في الصِّياحِ والدَّبيبِ على الأرضِ والدَّقِ على بابِ الْغُرفَةِ وأَبْوابِ وأَرْفُفِ الدَّواليبِ (الخِزاناتِ)، والْقَفْزِ على الأَسِرَّةِ.. كُنّا نُخيفُ الْعَفاريتَ.

لَعِبْنا هَكَذا لِبَعْضِ الْوَقْتِ.. حَتَّى طَرَقَ جَدّي الْبابَ ودَخَلَ.. فَتَوَقَّفْنا في الْحالِ.

قالَ جَدّي بِهُدوئِهِ الْمَعْهودِ: "ماذا تَفْعَلونَ يا أَوْلادُ"؟

انْدَفَعَ أخي حُسَينٌ، صاحِبُ الْفِكْرَةِ، وقالَ: "نُخيفُ الْعفاريتَ".

قالَ جَدّي: "لَكِنَّها لُعْبَةٌ مُزْعِجَةٌ جِدًّا".

رَدَّ حُسَينٌ: "هذا هُوَ الْمَقْصودُ.. إنَّنا نُزْعِجُ الْعفاريتَ فَتَخافُ..".

قالَ جَدّي: "وتُزْعِجُونا نحنُ أَيْضًا.. ما رَأْيُكُم أنْ تَلْعَبوها غدًا في الْحَديقَةِ".

انْتَهى جِدالُ أخي عِنْدَ هذا الْحَدِّ، فقُلْنا لِجَدّي: "حاضِر".

أَضَأْنا النّورَ وجَلَسْنا على الأَسِرَّة نَتَكَلَّمُ..

قُلْتُ مُتَشَكِّكَةً: "كَيْفَ نُخيفُ الْعفاريتَ في الْحَديقَةِ في الصَّباحِ، الْعفاريتُ لا تَأْتي في الصَّباحِ.."

قالتْ مها، ابْنَةُ خالَتي: "لَيْسَ هُناكَ عفاريت أَصْلاً، فَهِيَ لا تَأْتي بالنَّهارِ أوِ اللَّيْلِ".

تابَعَ أخي: "كما أنَّها لا تَقْعُدُ في الْحَدائِقِ".

قاطَعَنا مُحَمَّدٌ، أكبرُ أبناءِ خالي: "بالْعَكْسِ.. إنَّها تَعيشُ في الْحَدائقِ".

وحَكَى لنا أنَّ كَرِيمًا ابْنَ الْجيرانِ حَكَى لَهُ أنَّ الْعفاريتَ تَظْهَرُ كُلَّ لَيْلَةٍ في حَديقَةِ الأورْمانِ التي تَقَعُ في نِهايَةِ شارِعِ الدُّقي.. وهذا يَعني أنَّها تَأْتي في اللَّيْلِ فقط، وتَظَهَرُ في الْحَدائقِ ولَيْسَ في الْبُيوتِ.. وهَكَذا اسْتَمَرَّ النِّقاشُ بَيْنَنا حَتَّى مَوْعِدَ النَّوْمِ.

وفي الْيَومِ التّالي انْتَحَى حُسَينٌ بي وقالَ: "ما رأيُكِ أن نَذْهَبَ في اللَّيْلِ لِرُؤْيَةِ الْعفاريتِ في حَديقَةِ الأورْمانِ"؟

قُلْتُ لَهُ: "لا طَبْعًا.. فَجَدّي وجَدَّتي لَنْ يَسْمَحا لنا، كما أنَّ الْحِكايَةَ كُلَّها تَخْرِيفٌ".

لَكِنَّهُ قالَ: "تَصَوَّري لَوْ أنَّنا لم نَذْهَبْ ثُمَّ اتَّضَحَ أنَّ الْعفاريتَ تَذْهَبُ فِعْلاً لِلْحَديقَةِ لَيْلاً.. نَكونُ قد أَضَعْنا فُرْصَةً لَنْ تَتَكَرَّرَ".

تَرَكَني أخي وعَرَضَ اقْتِراحَهُ على ابنيّ خالي، فوافَقا بابْتِهاجٍ، واتَّفَقا أنْ يَقوما في مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ويَذْهَبَ ثلاثَتُهُم إلى الْحَديقَةِ ويَنْتَظِروا ظُهورَ الْعفاريتِ هُناكَ.. وهَكَذا اسْتَغْنَوُا عَنِ اشْتِراكي مَعَهُم.

انْتَهَى الْيَوْمُ بِسَلامٍ، وحانَ مَوْعِدُ النَّوْمِ، فَوَدَّعْنا، نحن البنات، أَوْلادَ خالي وأخي حُسَيْنًا، ودَخَلْنا غُرْفَتَنا، بَيْنَما نَزَلَ الصِّبْيَةُ لِلنَّوْمِ في الطّابِقِ الأرْضِيّ.

اسْتَيْقَظْتُ في اللَّيْلِ على صَوْتِ طَرْقٍ خَفيفٍ على الْبابِ وصَوتُ أخي يُناديني، فَوَجَدْتُهُ على بابِ الْغُرْفَةِ مُرْتَدِيًا مَنامَتَهُ، وقالَ لي: "مُحَمَّدٌ، ابنُ خالي، نَوْمُهُ ثَقيلٌ، ورَفَضَ أنْ يَسْتَيْقِظَ، وأَحْمَدُ الصَّغيرُ قالَ إنَّهُ لَنْ يَذْهَبَ دونَ أخيهِ".

قُلْتُ بِارْتِياحٍ: "إذَنْ، أُلْغِيَتْ الرِّحْلَةُ، فأنْتَ لَنْ تَذْهَبَ وَحْدَكَ طبعًا".

رَدَّ حُسَينٌ بِثِقَةٍ: "بَلْ.. سَأَذْهَبُ وَحْدي طبعًا".

فَكَّرْتُ قليلاً، إذْ لَيْسَ مِنَ الْمَعْقولِ أنْ أتْرُكَ أخي الصَّغيرَ يُخاطِرُ بِحَياتِهِ وَحْدَهُ.. وهَكَذا، أَقنعتُ نفسي بضرورَةِ الذهابِ معه إلى حديقَةِ الأورْمانِ. فقُلْتُ لَهُ: "لَحَظاتٍ لأُغَيِّرَ ثِيابي.. فالآنِساتُ الْمُحْتَرَماتُ لا يَخْرُجْنَ مِنْ غُرْفَةِ النَّوْمِ بِثِيابِ النَّوْمِ".

فَتَحْنا بابَ الْبَيْتِ، ثُمَّ حَشَرْنا به صَفَحاتٍ مِنَ الْجَريدَةِ لِنَتَمَكَّنَ مِنْ فَتْحِهِ مِنَ الْخارِجِ، وانْطَلَقْنا نَحْوَ حَديقةِ الأورمان في نِهايَةِ شارِعِ الدُّقّي.

كانَتْ بَوّابَةُ الْحَديقَةِ مُغْلَقَةً، والْهُدوءُ يَسودُ الْمَكانَ، ولا نَسْمَعُ إلا صَوْتَ صُرْصارَ الْغَيْطِ وغِناءَ الْكَرَوانِ. فَسِرْنا حَوْلَ سورِ الْحَديقَةِ ونَحْنُ نُمْعِنُ النَّظَرَ داخِلَها مِنْ بَيْنِ فَتَحاتِ السّورِ الْحَديديّ، لَكِنَّنا لَمْ نَلْحَظْ أيَّ شَيءٍ غَريبٍ يَصْلُحُ أنْ يَكونَ مُقَدِّمَةً لِمَجيءِ الْعفاريتِ.

عُدْنا إلى الْبَوّابَةِ.. ووَقَفْنا نُفَكِّرُ. قالَ حُسَينٌ: "هُنا الْبَوّابَةُ الرَّئيسِيَّةُ، فإذا كانتْ الْعفاريتُ تَحْضُرُ إلى الْحَديقَةِ، فلابُدَّ أنَّها تَمُرُّ مِنْ هُنا".

فاقْتَنَعْتُ بِرَأْيِهِ، واقْتَرَحْتُ أنْ نَنْتَظِرَ هُنا حَتَّى تَأْتِيَ الْعفاريتُ.

وقَفْنا نَنْتَظِرُ بَعْضَ الْوَقْتِ، ثُمَّ تَعِبْنا.. ويَئِسْنا، فَجَلَسْتُ على الأرْضِ عِنْدَ زاوِيَةِ الْبَوّابَةِ، وبعدَ قليلٍ جَلَسَ حُسَينٌ بِجِواري وَهُوَ يَقولُ: "مِنْ هُنا، سَوْفَ نَرَى الْعفاريتَ وَهِيَ قادمَةٌ".

لَمْ أَرُدَّ على كَلامِهِ، فقدْ كُنْتُ أُغالِبُ النَّوْمَ، فلَمّا جَلَسَ بِجِواري، أَسْنَدَ كُلٌّ مِنّا رَأْسَهُ على رَأْسِ الآخَرِ.. ونِمْنا في الْحالِ.

لا أَدْري كَمْ مِنَ الْوَقْتِ مَضَى، لَكِنّي فَتَحْتُ عَيْنَيَّ فَوَجَدْتُ أمامي خَيالاً ضَخْمًا، فَدَفَعْتُ أخي بِمِرْفَقي في جَنْبِهِ، ففتحَ عينَيْهِ هُوَ الآخَرُ.

بعدَ لَحَظاتٍ مِنَ التَّأَمُّلِ، اكْتَشَفْتُ أَنَّ جَدّي يَقِفُ أمامَنا، واضِعًا طاقِيَّةً على رَأْسِهِ.. الْتَقَتْ عَيْنَيْهِ بِعَيْنَيَّ، ثُمَّ بِعَيْنَيّ أخي.. فَخَفَضْنا بَصَرَنا إلى الأرْضِ، ثُمَّ عُدْنا نَنْظُرُ إلَيْهِ فَوَجَدْناهُ مُبْتَسِمًا.. فابْتَسَمْنا على اسْتِحْياءٍ.. ظَلَّ جَدّي يَنْظُرُ إلَيْنا وَهُوَ يَبْتَسِمُ.. ثُمَّ أشارَ لنا أنْ نَتْبَعَهُ، فَقُمْنا وَسِرْنا وَراءَهُ إلى الْبَيْتِ.

كانَ جَدّي قدْ أزالَ صَفَحاتِ الْجَريدَةِ وأَقْفَلَ الْبابَ، ففَتَحَهُ بِمِفْتاحِهِ ودَخَلَ، ودَخَلْنا.. فأشارَ نَحْوَ حُجْرَةِ الصِّبْيَةِ، فدَخَلَها حُسَيْنٌ دونَ أنْ يَنْطِقَ بكَلِمَةٍ. ثُمَّ صَعَدَ السُّلَّمَ وصَعَدْتُ وَراءَهُ، وَأَسْرَعْتُ إلى غُرْفَةِ الْبَناتِ فدَخَلْتُها قَبْلَ أنْ يُشيرَ إلَيْها.

وهَكَذا انْتَهَتْ مُغامَرَتُنا.. وفي صَباحَ الْيَوْمِ التّالي، لمْ يَفْتَحْ جَدّي الْمَوْضوعَ معنا، ولا جَدَّتي.. لَكِنَّها في الْمَساءِ، عِنْدَما ذَهَبْنا إلى غُرْفَةِ الْجُلوسِ لِنَقولَ لها تُصْبِحينَ على خَيْرٍ، سَأَلَتْنا فَجْأَةً، ودونَ مُقَدِّماتٍ: "ماذا كُنْتُما تَفْعَلانِ عِنْدَ بَوّابَةِ حَديقَةِ الأورْمانِ؟".

فأَجَبْتُ في الْحالِ: "كُنّا نَنْتَظِرُ الْعَفاريتَ".

فهَزَّتْ جَدَّتي رَأْسَها كأنَّها تَقولُ: "الآنَ فَهِمْتُ"..

ثُمَّ قالَتْ: "لَيْسَ مَسْموحًا لِلأَبْناءِ والبنات الْخُروجُ مِنْ بابِ حَديقَةِ الْبَيْتِ إلا بِإِذْنٍ".

فَقُلْنا مَعًا: "حاضِر".

وأَسْرَعْنا خارِجَيْنِ، مُتَّجِهَيْنِ إلى سَريرَيْنا.. وفي الطَّريقِ، قالَ لي حُسَينٌ هامِسًا: "عِنْدي فِكْرَةٌ رائِعَةٌ لِلَّعِبِ غَدًا، أنْ نَتَسَلَّقَ إلى السَّطْحِ.."

وقَبْلَ أنْ أَسْمَعَ باقي الْفِكْرَةِ، قُلْتُ لَهُ: "الرَّحْمَةَ يا حُسَيْنٌ، يَكْفي أَنَّهما لَمْ يُعاقِبانا على رِحْلَةِ الأورْمانِ".

قالَ بعدَ تَفْكيرٍ: "فِعْلاً.. الْحَقُّ مَعَكِ.. سَوْفَ نُؤَجِّلُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ إلى الزِّيارَةِ الْقادِمَةِ".